من أوراق الدكتورطه حسين

تيسير النحو العربى
وإصلاح الكتابة العربية

بقلم: د. محمد حسن الزيات

(الهلال ، ١ يونيو ١٩٨٨)

بين أوراق المرحوم العميد الدكتور طه حسين صورة خطاب غير مؤرخ وجهه الى وزير التربية والتعليم أو وزير المعارف العمومية فى ذلك الوقت عن تيسير النحو العربى وإصلاح الكتابة العربية يقول فيه (أن لهاتين المسالتين المشكلتين خطرا عظيما هو اظهر من أن يحتاج الى وصف أو بيان) وقدكان هذان الموضوعان يشغلان بال طه حسين وأهل جيله ، واتجه بعضهم مثل المرحوم عبد العزيز باشا فهمى - إلى التفكير في استعمال الحروف اللاتينية فأنكر طه حسين ذلك عليه وخاصمه فيه أشد الإنكار وأعنف الخصام على أن هاتين المسألتين المشكلتين لا تزالان اليوم بغير حل ، ولا تزالان تشغلان بال الكافة من خاصة وعامة فى مصر وفى كل البلاد العربية فلعل نشر هذا الخطاب اليوم أن يساهم فى الوصول الى حل لهاتين المسألتين المشكلتين يقول طه حسين فى خطابه ٠ان الحياة الصحيحة للغة العربية رهينة به .

حضرة صاحب المعالى وزير المعارف العمومية

تفضلت فتحدثت الىّ فى مسألتين لهما فى حياتنا الفعلية أبعد الأثر وأبلغه إحداهما : تتصل بتيسير النحو العربى وجعله ملائما لطبيعة العمر الذى نعيش فيه موافقا لمزاج العقل الحديث ٠ والأخرى تتصل بإصلاح الكتابة العربية بحيث تعصم القارئين من الخطأ وتمكنهم من أن يقرأوا الكلام كما أراد صاحبه أن يكتبه وكما يحب صاحبه أن يقرأه الناس . وما اشك فى أن لهاتين المسالتين خطرا عظيما هو اظهر من أن يحتاج الى وصف أو بيان وحسبى أن أقول أن الحياة الصحيحة للغة العربية رهينة بحل هاتين المسالتين ألمشكلتين وانا لنغالط انفسنا اشد المغالطة ونخادعها اشنع الخداع حين نظن أننا نعلم تلاميذنا وطلابنا اللغة العربية ونفقههم فيها ونبصرهم بها ونمكنهم من أن يعبروا بها تعبيرا صحيحا بما مريدون أو يفهموها فهما صحيحا اذا قرأوها فى الكتب والصحف أو سمعوها من الخطباء والمحاضرين على نحو ما بعبر الناس بلغاتهم وعلى نحو ما يفهم الناس لغاقهم .

فنحن فى حقيقة الأمر لا نكاد نبلغ من هذا شيئا وقد اثبت التجارب التى لا تقبل شكا ولا تتعرض لريب أن شبابنا بعيدون كل البعد عن أن يعرفوا لغتهم معرفة متوسطة فضلا عن أن يحسنوها ويتصرفوا فيها تصرف المالك لها

العالم بها المتقن لدقائقها وأسرارها وشبابنا مع ذلك ينفقون فى درس اللغة العربية ويفق معهم أساتذتهم وقتا طويلا ويحتملون فى ذلك ويحتمل معهم أساتذتهم جهدا ثقيلا فهم يدرسونها أربعة أعوام فى التعليم الابتدائى وخمسة أعوام فى التعليم الثانوي ، ثم يصلون إلى الجامعة أو المدارس العالية وهم عاجزون اشد العجز من أن يصوروا أراءهم وخواطرهم تصويرا صحيحا بالكتابة أو الخطابة أو الحديث فضلا عن أن يصوروا هذه الآراء والخواطر فى الشعر الرائع أو النثر الفنى الجميل . وقد اعترقت وزارة المعارف نفسها لهذه الحقيقة بعد أن أقنعتها أن أقنعتها التجربة بها ودلتها الحوادث عليها فساقت الي الذين يعنون بتعليم اللغة العربية حديثا تسألهم فيه هن أسباب هذا العجز الظاهر وعن الوسائل التى يمكن أن تتخذ لإتقانه وتبرئة الشباب وقد تلقيت سؤال الوزارة هذا منذ أشهر فيمن تلقاه وقد رد عليه كثير من الناس فى أحاديث خاصة وجهوها إلى الوزارة وفى مقالات وفصول نشرتها الصحف والمجلات ولكنى آثرت الصمت واخترت أن اقرأ سؤال الوزارة ثم لا أجيب عليه لأنى كنت مستيئسا من فائدة هذه الإجابة واثقا بانها لن تغنى شينا مستيقنا إنها ستصل الى الوزارة قيما يصل إليها من الإجابات فتقرا أولا نقرا ثم تحفظ بعد ذلك فى مكان أمين أو تسلم الى الإهمال الذى ينتهى بها الى الضياء .

وكنت محققا فى نفسى أن الوزارة لن تأخذ من الوسائل التى يمكن أن اقترحها عليها بشى لأن الأخذ بهذه الوسائل كلها أو بعضها يحتاج إلى جرأة قد لا تقدم عليها البيئات الرسمية إلا بعد تردد طويل ولعل هذا التردد أن ينتهى بها إلى الأحجام والصبر على المكروه .

وكذلك رسمت لنفسى منذ عهد غير قصير خطة الأعراض عن السعى عند الوزارة فى بعض وجوه الإصلاح التى تحتاج الى الحزم والعزم والى الجراءة والإقدام وإلى مواجهة بعض المصاعب التى تنشا عن المحافظة والغلو فيها. وآثرت أن اترك أمور هذا الإصلاح تجرى مع طبيعة التطور وتقرض نفسها على الأجيال شيئا فشئينا وما كنت لأخر ج عن هذه الخطة التى أخذت نفسى بها منذ حين لولا انى وجدت من حديث معاليكم ومن رغبتكم الملحة فى إصلاح أمر اللغة العربية ما رد بعض الأمل وشجعنى على أن أعود إلى التفكير فى أشياء فد تركت التفكير فيها منذ زمن بعيد . وانى لسعيد كل السعادة مغتبط اشد الاغتباط حين ألاحظ أن الآراء التى سمعتها من معاليكم فى إصلاح النحو والكتابة مطابقة كل المطابقة لما كنت اطمع فيه واطمح إليه منذ أعوام طويلة فليكن إقبال معاليكم على هذا الإصلاح فالا حسنا ومقدمة سعيدة لخطوات موفقة إن شاء الله .

ولقد لاحظت منذ أعوام فى تقرير رفعته الى احد وزراء المعارف السابقين إن النحو الذى نعلمه لتلاميذنا وطلابنا فى القرن الرابع عشر للهجرة هو بعينه النحو الذى كان يعلم فى البصرة والكوفة وغيرهما من مراكز الثقافة الإسلامية فى القرن الثانى والثالث للهجرة أى أننا نعلم النحو فى هذه الأيام على الطريفة التى كان يعلم عليها منذ اكثر من الف سنة .. ولاحظت أن العلوم كلها قد تطورت وتغيرت أصولها وقواعدها ومناهج تعليمها والبحث عنها إلا علوم اللغة العربية فإنها ظلت كما هى لم تتطور ولم تتغير إلا أن يكون ذلك من طريق الاختصار الذى لا يذلل صعبا ولعله يصعب السهل ويدفع الواضع إلى الغموض وليست العلوم وحدها هى التى تطورت أو بعبارة أصح لم تتطور العلوم إلا لأن العقل نفسه قد تطور وتغير فأنتج علما مخالفا لما كان نتيجة عن قبل وعجز عن إساغة العلم القديم الذى كان يسيغه العقل القديم .. وما من شك فى أننا لا نستطيع التفكير في إن نعلم الطبيعة والطب على نحو ما كان يعلمهما الرازى وابن سينا أو ارسطاطليس وجالينوس ولكننا نطمئن الى تعليم النحو والصرف بنفس الطريقة التى كان يعلمهما بها الكسائى وسيبويه . ومصدر هذا التناقص الغريب خطأ فى التقدير تورط الناس فيه منذ زمن بعيد ثم استقر فى نفوسهم وامتزج بعقائدهم واصبح تحويلهم عنه شيئا عسيرا . فهم قد ظنوا أن النحو هو اللغة وأن تغيير قواعده وأصوله تغيير للغة وإفساد لها

ومن حيث إن اللغة العربية هى لغة القران الكريم والسنة المطهرة فينبغى أن ترتفع عن التغيير والتبديل وأن يتبقى التصرف فيها على أي وجه من الوجوه يعرضها للتغير أو التطور واغرب من هذا أن اللغة قد تغيرت وتطورت غير مرة فى تاريخها الطويل دون أن يمس ذلك لغة القران والحديث أو يؤثر فيها تأثيرا قليلا وكثيرا ولكن الناس لم يفطنوا لهذا أو لم يحفلوا به وظلوا يؤمنون بأن النحو هو اللغة وبأن تغيير قواعده وأصوله شر عظيم . ومع ذلك فليس النحو إلا قواعد يقصد بها إلى ضبط استعمال اللغة على اقرب وجه وأيسره وقد ابتكر النحو ابتكارا فى أول الحضارة الإسلامية واستحدثت قواعده بعد أن لم تكن واختلفت فى تصويرها وضبطها وعرضها أراء الأئمة و العلماء فلم ينشأ عن هذا الاختلاف إفساد اللغة ولم تتعرض من أجله لخطر جليل أو ضئيل وأى خطر تتعرض له اللغة حين يختلف الكوفيون والبصريون مثلا فى أن المبتدأ مرفوع بالابتداء أو مرفوع بالخبر ٠ وفى أن الأسماء الستة ترفع بالواو وتنصب بالألف وتجر بالياء أو ترفع بضمة قبل الواو وتنصب بفتحة قبل ا لألف وتجر بكسرة قبل الياء أو تعرب بالحركة والحرف جميعا أو تعرب بحركة مقدرة على هذا الحرف سيظل المبتدأ مرفوعا مهما يكن رافعه وستظل الأسماء الستة معربة على هذا النحو المعروف مهما تكن علامة إعرابها وعلى هذا النحو كل اختلاف العلماء التى تشبه هذين المثالين لم تغير اللغة ولم تعرضها لسوء . فلو أننا أحدثنا مذهبا جديد ا فى ضبط قواعد النحو فقلنا أن المبتدأ مرفوع

وسكتنا عن رافعه مثلا لما كان لهذا المذهب الجديد اثر فى اللغة من حيث هى لان المبتدأ سيظل مرفوعا كما كان فتستقيم اللغة كما استقامت دائما . ولكن هذا المذهب الجديد قد يريح التلميذ والطالب من عناء لا حلجة إليه ولا فائدة فيه هو عناء البحث عن هذا العامل المعنوى الذى كان يرفع المبتدأ عند البصرين وهو الابتداء أو عناء الفهم لهذا العبث الطريف الذى كان يجعل المبتدأ رافعا للخبر والخبر رافعا للمبتدأ عند الكوفيين .

وما اشد حاجة التلميذ والطالب فى هذا العصر الذى كثر العلم فيه وتعقدت الوان المعرفة الى أن نريحه من العناء الذى لا يغنى ونقدم إليه من العلم ما يستطيع أن يسيغه ونحن إن لم نفعل ذلك بغضنا إليه العلم تبغيضا وصرفناه عنه صرفا وأظن أننا قد نجحنا الى الآن فى تبغيض اللغة العربية وعلومها الى التلاميذ والطلاب وما أرى أن الفتى المصرى يبغض من العلوم التى يحصلها فى المدرسة شيئا كما يبغض النحو والصرف والمعانى والبيان والبديع ذلك لان هذه العلوم لا تتصل بنفسه ولا تتحدث الى عقله ولا تلائم طبعه ومزاجه وإنما هى الغاز لا تفهم أو سخف لا يستطيع أن ينظر إليها نظرة الجد .

وكيف تريد التلميذ على أن يفهم أننا اذا قلنا محمدُ أقبل فلابد من أن نقدر فاعلا مستترا للفعل ومن أن يكون هذا الفاعل المستتر ضميرا يرجع على محمد . وكيف نريد الطالب على أن يفهم أن هذا الضمير المستتر قد يستتر

جوازا مرة ويستتر وجوبا مرة أخرى وهو فى كل حال مبنى ومحله دائما محل الرفع كل هذا كلام لا يسيغه العقل الحديث ولا سيما فى طور الطفولة والشباب فاذا فرضناه على الصبي أو الفتى فإنما نفرضه على الذاكرة ونكلف التلميذ أن يحفظ ما لا يفهم وان يعيده فى الامتحان كما يعيد الببغاء ما تحفظ من الصيغ والألفاظ وهذه الأمثلة التى ذكرت أهون ما يلقى التلميذ حين يأخذ فى درس النحو ولا أريد أن اعرض للحركات التى تقدر ويمنع من ظهورها التعذر أو يمنع من ظهورها الثقل أو تمنع من ظهورها كسرة المناسبة ولا أريد أن اعرض للاشتغال ولا أريد أن اعرض للحروف التى تنوب عن الحركات ولا الحركات التى ينوب بعضها عن بعض كالفتحة التى تنوب عن الكسرة والكسرة التى تنوب عن الفتحة ولا أريد أن اعرض لنظرية العامل التى تكلف التلميذ والطالب عناء ثقيلا دون أن يفهمها أو يسيغها وما أكثر ما يسأل التلميذ نفسه عن هذه الأدوات التى تنصب الاسم وترفع الخبر كيف تعمل النصب والرفع مع إنها فى حقيقة الأمر لا تعمل شيئا . فلو أرحنا الطالب من هذا كله ويسرنا له أمور النحو تيسيرا وحببنا إليه دروس اللغة العربية وأتحنا له فهمها وذوقها والانتفاع بها فى الكلام والفهم نعرض اللغة لخطر قليل أو كثير ،كلا إنما نحط عن التلميذ عبئا ثقيلا ليس هو فى حاجة الى احتماله وانا واثق كل الثقة بأن إراحة التلميذ من هذا العناء الثقيل السخيف ستغير نظرته الى

دروس اللغة العربية وإقباله عليها وستظهر نتيجة ذلك فى اسرع الوقت واقصره فيدهم

-٣-

أما إصلاح الكتابة فليست الحاجة إليه أقل من الحاجة إلى إصلاح النحو ولعلها أن تكون اشد منها واكثر شيوعا فليس كل الناس مضطرا إلى أن يتعلم النحو ولكن كل الناس مضطر إلى أن يقرا ويكتب وهو فى حاجة إلى أن يعصم من الخطأ إذا قرأ وكتب وقد صور حاجة الناس إلى هذا الإصلاح تصويرا صادقا كل الصدق فى حديثكم الذى أذعتموه منذ حين واكبر الظن أن مصدر الشر فى هذه المسألة هو بعينه مصدر الشر فى المسألة السابقة فقد استقر فى نفوس الناس أن الكتابة كما هى مقدسه لا ينبغى أن تمس ولا أن ينالها التغيير كما أن النحو مقدس لا ينبغى أن يمس ولا أن يناله التغيير وقد نسى الناس أن الكتابة غيرت وتطورت ونالها العلماء بالإصلاح فلم يصب اللغة من ذلك شر ولم يلم بها مكروه وقد أرادت الظروف أن تكون الكتابة العربية كغيرها عن الكتابات السامية ناقصة نقصا شنيعا يصور نصفها ويهمل نصفها الآخر تصور حروفها الجامدة وتهمل حروفها اللينة ونشأ عن هذا أن أصبحت الكتابة لا تكاد تغنى وهى على كل حال شديدة العسر ولا يحسن قراءتا إلا الذين يفهمون قبل أن يقرأوا وقد يمكن أن يقبل هذا حين تكون الكتابة مقصورة

على طبقة ضيقة من الناس تحتكرها وتتفرد بها كما كان الكهان يحتكرون المعلم و يستأثرون به فى بعض العصور فأما اذا فرض الدستور أن يقرا الناس جميعا وان يكتبوا فأما اذا ألغت الديمقراطية هذا النوع من الاحتكار فلا ينبغى أن نطالب عامة الناس بأن يفهموا قبل أن يقرأوا وبأن يكون لهم ذكاء العلماء والمتفوقين وإنما ينبغى أن نجعل القراءة أداة تمكنهم من الفهم لا غاية يشكنهم الفهم منها وليس الى ذلك من سبيل إلا أن تكون الكتابة كاملة كالنطق فتصور فيها الحروف الجامدة والحروف اللينة كما أن النطق كامل يصور فيه هذان التوعان من الحروف . فنحن اذا نطقنا بلفظ "كَتَبَ" لا ننطق بالكاف والتاء والباء وحدها وإنما ننطق معها بهذه الفتحات الثلاث التى هي النصف اللين لهذه الكلمة فما بالنا نصورها في النطق فى الكتابة . وكيف السبيل للقارئ الساذج اذا رأى هذه الأحرف الثلاثة الجامدة أن ينطقها على الصورة التي أرادها لها الكاتب إلا إذا فهم قبل أن يقرأ وكيف يتاح ذلك لغير العلماء والأذكياء من الناس. وإذا كان الأئمة من علماء المسلمين قد فطنوا لخطر هذه المسألة بالقياس الى القران الكريم نفسه فحاولوا تصور هذه الحروف اللينة فى المصحف الشريف بالنقط مرة وبالشكل المعروف مرة أخرى فما الذى يمنعنا نحن من أن نمضى فى هذه الطريق التى مهدها لنا المتقدمون أفلا يسغنا أن نصنع ما صنع أئمة القرن الأول والثانى وكيف ينكر علينا مالم ينكر عليهم وكيف نلام على مالم يلاموا عليه وأيهما خير أن نسلك هذه الطريق التى

سلكوها فنتم ما بدأوا ونحقق ما أرادوا أم أن نبقى حيث نحن فنحول بين الملغة العربية وبين الحياة والخصب والنماء لو نضطر الى أن نصطنع الكتابة اللاتينية كما اصطنعها الترك أما أنا فما اشك فى أن الإقدام على هذا الإصلاح فرض لا سبيل إلى إهماله إلا إذا أبحنا لأنفسنا إهمال اللغة نفسها وتركها عرضة لتقلب الظروف ولكن تحقيق هذا الإصلاح ليس من الأشياء اليسيرة فهو قد يحتاج إلى جماعة من الفنيين الذين يتقنون العلم بأنواع الكتابة والخط ويحسنون التصرف فيها ليدرسوا هذه المسالة درسا عميقا ثم يعرضوا ما يتاح لهم من الحلول العملية التى تجمع بين الدقة واليسر والبساطة . وربما كانت المسابقة العامة من الوسائل المنتجة في هذا الأمر بعد أن يستقر رائي العلماء وينم اتفاقهم على ضرورة الأخذ بهذا الإصلاح.

وخلاصة القول انى. اقترح أولا أن تؤلف لجنه صغيرة تكلف تبسيط النحو ورفع ما تنتهى إليه من هذا التبسيط إلى معاليكم لتروا رأيكم ولتعرضوه إن شئتم على هيئة أوسع وأشد تنوعا من هذه اللجنة وثانيا أن تستشيروا فى مسألة إصلاح الكتابة طبقات مختلفة من المشتغلين باللغة العربية وعلومها فيستشار الأزهر وتستشار دار العلوم وتستشار الجامعة ويستشار المجمع اللغوى فإذا اتفقت هذه الهيئات كلها على الأصل الأساس وهو من تصوير الحروف اللينة أو الحركات على إنها جزء من الكلمات ضرورة لابد منها وخير

لا شر فيه عرض موضوع هذا الإصلاح لمسابقة عامة لا فى مصر وحدها ولا فى الشرق العربى وحده بل فى الشرق والغرب جميعا .

وانا أرجو أن تتفضلوا فتقبلوا مع اجمل الشكر واحسن التقدير اخلص التحية واعظم الإجلال .

طه حسين